«ربما أوجب استقصاء النظر عدولاً عن المشهور، فإذا قرع سمعك ذلك فظن خيراً، ولا تنقبض بسبب ما لم تألفه، واعلم أن العاقل لا يحيد عن المشهور ما وجد عنه محيصا»

«ابن سينا»

أصول المعرفة والمنهج العقلي

الأستاذ د. أيمن المصري

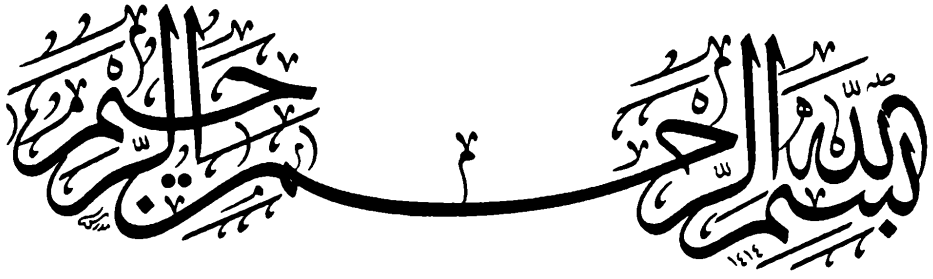
بسم الله الرحمن الرحيم

أصول المعرفة والمنهج العقلي

الأستاذ د. أيمن المصري

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧١٩٨٨

http://www.Dar-Alamira.com

e-mail:zakariachahbour@hotmail.com

مُقَدِّمَة

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]

أحمد الله على حسن توفيقه، وأسأله هداية طريقه، وإلهام الحق بتحقيقه.

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، لا سيما نبيه المصطفى، سيد الأنبياء والمرسلين وأهل بيته الطيبين الطاهرين، معادن العلم والحكمة وأعلام الصدق واليقين.

أما بعد، فإن من أعظم النعم التي منَّ الله تعالى بها على عباده، أن وهب لهم من نوره عقلاً منيراً، يميزوا به بين الحق والباطل في الأقوال، والخير والشر في الأفعال، فكان أول ما خُلق في مملكة الإنسان، وأول من لبى نداء الملك الديان، فأقبل على طاعته حين دعاه، وأدبر عن معصيته حين نهاه، فأكمله فيمن أحبه، وأتمه فيمن اصطفاه، فالعقل يلهمه الله السعداء، ويحرمه الأشقياء، وبالعقل عُبد الرحمن واكتسب به الجنان.

ولما نسي العباد عهد الله ونعمته، ونقضوا ميثاقه وفطرته، وعطّلوا عقولهم، واتبعوا ظنونهم وأهواءهم، بَعثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَ واتَرَ اَلَيْهِمْ اَنْبِياءَهُ لِيَسْتَاءْدُوهُمْ مِيْثاقَ فِطْرَتِهِ، وَ يُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَ يَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَ يُثِيرُوا لَهُمْ دَفائِنَ الْعُقُول .

فيا أيها الحريص على تحقيق الحق ومعرفة الصدق بين هذه الأمواج المتلاطمة من الملل والنحل الدينية، والمذاهب الفكرية والمسالك المعرفية، إني قد كتبت لك كتاباً بديعاً في أصول المعارف الإنسانية، المبتنية عليها جميع الرؤى الكونية والمسالك العملية، التي تعيّن مصير

(١) الحديد، ٢٥.

الإنسان في الحياة الدنيا، وترسم له الطريق إما إلى الشقاء أو السعادة الأبدية.

فبحثنا في هذا الكتاب ليس بحثا فلسفياً ولا أخلاقياً ولا اجتماعياً أو سياسياً، كما أنه ليس بحثاً طبيعياً أو رياضياً.

لأن كل هذه العلوم والمعارف لها موضوعاتها الخاصة بها التي تميزها عما سواها، ولها مناهجها المعرفية المختلفة المناسبة لها، التي تحقق مسائلها العلمية المطلوبة فيها.

وإنّما بحثنا في هذا الكتاب يدور حول أصول المعرفة الذي يتناول هذه المناهج المعرفية المستعملة في تحقيق وإثبات مسائل سائر العلوم، الأمر الذي يعطيه التقدم الذاتي والصدارة الطبيعية على جميع العلوم والمعارف الإنسانية.

وذلك لأن العقل السليم والصريح كما يقطع بضرورة الاستدلال على المطالب العلمية قبل التصديق بصحتها أو سقمها، فهو يقطع أيضاً بضرورة البحث عن حجية تلك الأدلة التي يستدل بها على غيرها في المرتبة السابقة من البحث والتحقيق، وإلاَّ لأصبح الاستدلال بها ضرباً من الوهم والخيال، والصرح العلمي والفكري المبني عليها قصراً على رمال.

ومن خلال سفرنا الطويل ورحلتنا العقلية على ضفاف هذه المباحث السنية، سنطوي منازل متعددة حسب مقاصد هذا الكتاب، وسنرى من خلال فصوله ما يثير العقول والقلوب ويكون عبرة لأولي الألباب.

وسنستعرض في مباحث الكتاب أمهات الآراء والمدارس المعرفية المختلفة، من خلال أقوال أئمتها ومشايخها، ونبيّن معالمها الكلية، ثم نتعرض لها بالتحليل والنقد الموضوعي، وذلك بالميزان العقلي البرهاني البسيط والصريح، حتى تسفر عن وجهها، ويتميز حسنها من قبحها، وصحتها من سقمها، ولا نبتغي من وراء هذا البحث الطويل الشاق، سوى إحقاق الحق وإثبات الصدق، دون التعصب لجهة دون أخرى، حتى تصل بنا سفينة البحث والتحقيق في لجة هذا البحر العميق إلى شاطئ الأمن والأمان، باكتشاف المنهج المعرفي والميزان الذي يمكن الاعتماد عليه، والركون إليه، وبناء صرح المعرفة والعلوم الإنسانية عليه.

وليس لنا زاد في سفرنا هذا سوىٰ التمسك بالعروة الوثقىٰ، والاعتصام بحبل الله المتين، والتوكل علىٰ العلي القدير واللطيف الخبير، إنّه نعم المولىٰ ونعم النصير.

وفي الختام، أود التنويه إلىٰ أمرين:

الأول: لا يخفىٰ أن الكتاب في طبعته الأولىٰ كان لايخلو من وجود بعض الأخطاء المطبعية غير المقصودة، حاولنا تلافيها قدر الإمكان في هذه الطبعة، لتكون خالية من الاخطاء.

الثاني: لقد زدت في تحقيقات بعض المطالب العلمية، وكذا في ترجمة أصحاب المدارس المعرفية والشخصيات البارزة؛ لكي يُعرَف المستوىٰ الفكري الذي يتمتعون به، وكذلك ترجمة بعض الأسماء التي ذكرت في الكتاب وكانت آراؤهم غير سديدة، فقد ناقشنا آرائهم حسب الموازين العلمية الدقيقة من جهة، ومن جهة أخرىٰ لكي لا نحيل القارئ في الرجوع إلىٰ بعض المصادر التي قد لا تكون متوفرة عنده، ولكي يكتمل الكتاب بإضافة هذه المطالب المهمة من جهة ثالثة

وأخيرا لا أنسىٰ أن أتوجه بأسمىٰ آيات الشكر والامتنان لإخواني من الأساتذة المحترمين والفضلاء الأستاذعدنان هاشم الحسيني، والأستاذ حسين الخزاعي، والأستاذ محمد جليل الكروي، والأستاذ علي جاسم الساعدي علىٰ جهودهم الحثيثة والصادقة في إعداد هذا الكتاب، الذي سميتهُ بـ(أصول المعرفة والمنهج العقلي)، وقد رتبتهُ علىٰ مقدمة وثلاثة مقاصد وخاتمه.

تمهيد

أما المقدمة ففي الرؤوس الثمانية وهذا ما يحتاج إلى تمهيد فنقول:

لو تأملنا كتب القدماء من العلماء والحكماء، ونظرنا في بحوثهم وتدويناتهم للعلوم، لرأيناهم يتخذون منهجية خاصة يتناولون من خلالها عرض بعض المقدمات - وهي التي يسمونها بـ(الرؤوس الثمانية) - التي تتناول استعراض العلم استعراضاً إجمالياً، من خلال الثوابت الرئيسية في هذا العلم أو ذاك.

ولا يخفى ما لهذه المقدمات من التأثير والأهمية، في خلق التصور الابتدائي الكلي لمطالب العلم المراد معرفته، وهذا يسهّل للباحث بشكل أو بآخر مهمّة استعراض هذا العلم، وخلق النقاط الارتكازية التي تمكّن له الرجوع لعناصر العلم واستذكارها، وبقاء المادة العلمية حية يقظة في ذهنه. إلا أن هذا الاستذكار مجمل بطبيعة الحال.

وإذا كانت هذه السنّة الطيبة للعلماء المتقدمين على هذه الوتيرة المباركة، فلا يفوتنا الفضل فيها - ما دام القصد هو التعليم والتعلم - بهذا العرض الموجز لهذه المادة العلمية القيمة المهمة، بل إننا نرى إن هذه السنّة المعرفية مهمة؛ إذ أن لها عظيم الأثر في نفس الباحث والطالب للمعرفة، لكونها خالقة للحماسة وروح التواصل لديه، فإذا لم تكن هناك تصورات وأفكار تعرّف الطالب أهمية العلم وماهيته وغايته، فسوف تبرد فيه روح الحماسة للتعلّم أو الدراسة، هذا إذا لم يتّخذ موقفاً معادياً للعلم الذي يدرسه، وهو معذور بطبيعة الحال ؛ لأن الناس أعداء ما جهلوا .

ولنستعرض الآن الرؤوس الثمانية لعلم المعرفة :

الأمر الأول: تعريف العلم

لا شـك أن للتعريف دوراً كبيراً في رفع الالتباس في المعاني، لا سيّما إذا كان للفظ معاني متعـددة، والتعريف الذي نتوخّاه في بيان أصول المعرفة هو التعريف الاصطلاحي لا اللغوي، ولكـن قبل بيـان ذلك ينبغي تحديـد مفهوم العلم المقصود هنا، لا سيّما بعـد أن أصبحت هذه المعرفـة تواجه اليوم انسـباقات فرضتها الحضارة الغربية، حول حـصر مفهوم العلم في الجانب التجريبي، وإقصاء البحوث الفلسـفية والدينية بل الإنسـانية عن وصف العلمية، بحجة كونها مسائل غيبية لا يمكن إخضاعها للتجارب المختبرية، وسوف نبين فساد هذا التصور من خلال مطاوي هذا البحث إن شاء الله تعالى.

فنقول: العلم له إطلاقات متعددة متباينة المعاني:

١ـ مطلق الانكشاف، فيرادف الإدراك والمعرفة، وهذا هو مقسم التصور والتصديق .

٢ـ مطلق الاعتقاد الراجح، سـواء منع من النقيض أم لا، فيشـمل الظن والجزم، وهذا المعنى مرادف للتصديق ويقابله التصور .

٣ـ الاعتقاد الجازم المانع من النقيض، ويسمى باليقين، ويقابله الظن .

٤ـ الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ويقابله الجهل المركب .

٥ـ الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الثابت لاعن تقليد، ويسمى باليقين بالمعنى الأخص

٦ـ مجموع المسائل التي تجمعها جهة واحدة[1] .

وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا، وعليه إذا أردنا أن نعرف أيّ علم، فعلينا أن نشـير إلى العنوان الكلي الذي تندرج تحته مجموع مسـائله، وهو البحث عن أحوال موضوعه الخاصة به، أو كما يسميها الحكماء (العوارض الذاتية لموضوع العلم).

---

(١) معجم مصطلحات المنطق ص٢٠٠، دسـتور العلماء أو جامع العلوم ج٢ - ص٢٢٣، وسـيأتي في الأمر الثالث أن هذه الجهة الجامعة هي موضوع العلم .

فعلى سبيل المثال: إذا أردنا تعريف علم النحو - وموضوعه الكلمة من حيث البناء والإعراب - نقول: هو العلم الباحث عن العوارض الذاتية للكلمة من حيث البناء والإعراب، وإذا أردنا أن نعرف علم الطبيعيات - وموضوعه الجسم من حيث التغير والسكون - نقول: هو العلم الباحث عن العوارض الذاتية للجسم من حيث التغير والسكون، وكذلك علم الفلسفة: هو العلم الباحث عن العوارض الذاتية للموجود المطلق، وهكذا سائر العلوم.

وبناء على هذا يمكننا أن نعرّف علم المعرفة بأنه:

العلم الباحث عن العوارض الذاتية[1] للمناهج المعرفية الكاشفة عن الواقع والمستعملة في العلوم لتحقيق مسائلها.

وسيأتي في الأمر الثالث(موضوع العلم)، أنّ المناهج المعرفية التي أخذت في تعريف العلم هي موضوع هذا العلم كما سيأتي تفصيله .

الأمر الثاني: واضع العلم

إن البحث حول علم المعرفة بنحو تفصيلي كعلم مستقل، يعد من العلوم المستحدثة في منتصف القرن العشرين على يد بعض أعاظم المفكرين الإسلاميين، وفي مقدمتهم المرحوم العلامة الطباطبائي والشهيد العلامة مرتضى مطهري والشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر، وقد جاء ذلك كردة فعل على الشبهات المعرفية الكثيرة التي تعرض لها المنهج العقلي، والمباني الدينية والفلسفية في المحافل العلمية الغربية، لا سيّما مع بداية القرن السابع عشر الميلادي وإلى يومنا هذا.

---

(١) لم نتعرض لمعنى العرض الذاتي رعايةً لبعض المستويات العامة، فقد لاحظنا بنظر الاعتبار المستوى المتوسط في الدراسات الحوزوية والمستوى الأكاديمي الإعدادي(الثانوي) والجامعي، والحق والانصاف أن هذا المبحث من المباحث المهمة، جدير لطالب العلم الاعتناء به، ومن أراد التوسع في هذا البحث فعليه بمراجعة شرح الرسالة الشمسية ص٧٠، وكتاب منتهى الدراية في توضيح الكفاية ج١ ص١٦ ٠ ٩ وهكذا شروح الحاشية .

ولا يعني ذلك أن هذا العلم لم يكن له أيّ أثر في التراث الفلسفي الإنساني، بل كان له جذور في الصناعات الخمس في المنطق لاسيما في صناعة البرهان، وفي بعض المباحث الفلسفية المتفرقة، كمبحث العلم والوجود الذهني، بل كانت آثاره موجودة قبل الميلاد في فلسفة أعاظم الحكماء اليونانيين، كسقراط وأفلاطون وأرسطو[1]، لا سيّما في محاوراتهم مع السفسطائيين والشكاكين.

والسرّ - من وجهة نظري - في عدم بحث أكابر الحكماء في قديم الزمان حول هذا العلم

---

(١)

أ. سقراط: ابن النحّات موفرونيسكوس، أو سوفرونيسكوس، والمُمرضة (قابلة) تدعى فينارتة، أو فينارتة ولد سنة (٤٦٩ ق م)، وقيل سنة ٤٧٠ ق م، ولا نعرف سقرط مباشرة؛ لأنه لم يكتب شيئاً، بل نعرفه من خلال مأثورات كثيرة ترسم لنا وجوهاً مختلفة عنه، كان تلميذاً لبروديكوس والمهندس ثيودوروس السيراني، وهو كما وصفه معاصروه كان ضخم الجثّة أفطس الانف، يعبر وجهه عن رجولة صخرية وذكاء متوقد، وكان يجوب الشوارع حافياً في كل الفصول، وكان ناقداً لاذعاً للآراء الإنسانية، وعدواً لدوداً لظلم أقريتياس، أو أقريطياس وكأن مواطناً صالحاً ومثالياً، قوي الشكيمة للغاية ذا مظهر خارجي سوقي، ولم يكن يشبه لا السفسطائيين الذين كانوا يلبسون فاخر الثياب ويجتذبون الاثنينيين، ولا قدامى الحكماء الذين كانوا يشغلون مناصب رفيعة في مدنهم رفض الهروب - إحتراماً لقوانين بلاده - الذي عرضه عليه أقريطون، والذي كان من شأنه أن يخلّصه من موت محتم بعد إدانته بتهمة إفساد أخلاق الشبيبة، وذلك بتمجيد غير آلهة المدينة، فتجرع السم ومات سنة (٣٩٩ق م) في أثينا نبغ سقراط في القرن الخامس قبل الميلاد، في عصر كثرت فيه ضوضاء السوفسطائية، الذين زعموا أنّ الموجودات خيالات لا حقيقة لها، واستخدموا أسلحة الجدل في التقرير والتضليل، فكان لهم بالمرصاد، أصلاهم من فلسفته العالية نارا حامية محرقة، وكذا خالف اليونانيين في عبادته للأصنام، وقابل رؤساءهم بالحجاج، فأثاروا عليه العامة وتوصلوا إلى الوقيعة به لدى الحكومة اليونانية بتهمة أنه أهان الآلهة وجحدها، فزج بالسجن فمات مسموما، ولو أردنا شرح حاله مفصلاً لطال بنا المقام ولكن نكتفي بهذا المقدار راجع معجم الفلاسفة إعداد جورج طرابيشي ص٣٦٥، والموسوعة الفلسفية ص٢٤٤ - ٢٤٥، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين بإشراف م. روزنتال بيودين

ب. أفلاطون: هو أشهر فلاسفة اليونان الاقدمين ولد في أجينا سنة (٤٢٧ وقيل ٤٢٨ ق م وتوفي ٣٤٧ أو ٣٤٨ ق م)، أبوه أرسطون يتحدّر من أسرة عريقة، وكذلك أمه باريكيوني وقيل أفريقطوني التي كانت أُخت خرميدس وابنة أخي كرتياس اللذين كانا يمثلان الحزب الارستقراطي الأوليغاركي، واللذين قتلا عند نهاية الحرب الأهلية سنة ٤٠٣ ق م، فسقطت معهما الحكومة الارستقراطية لتحل محلها الحكومة الديمقراطية والتي أعدمت أستاذه سقراط فيما بعد سنة ٣٤٧ ق م بتهمة إفساد عقول الشباب، فهجر وطنه وأكبّ على العلم، وهو في فلسفته يتبع أستاذه سقراط، ولكنّه كساها بثوبٍ جديد وألقاها على الناس، ثم أضاف إليها أفكاره فجاءت أكمل فلسفة عرفها الناس في ذلك الحين، وذاع صيته في البلاد ولُقّب بالإلهي، وأمام الواقع الدموي الذي شهده أفلاطون رأى أن يقيم

بنحو مستقل، هو ماتعرضوا له في الصناعات الخمس، وكذلك بداهة ووضوح حجية المنهج العقلي البرهاني لديهم، وولايته على سائر المناهج المعرفية الأخرى، وإلاَّ فإن البحث عن مسائل علم المعرفة إنما يكون بالمنهج العقلي البرهاني مع كونه من مسائلها، وهذا يكشف عن كون حجية المنهج العقلي ذاتية، وأن البحث عن حجيته إنما هو للتنبيه على ذلك من جهة، وللإشارة إلى دائرة حجيته وعلاقته بسائر المناهج المعرفية من جهة أخرى.

الأمر الثالث: موضوع العلم

وهو الجزء الأول من ماهية العلم، وهو ما له البرهان، وقد سمي بـ(الموضوع) لأنه هو الذي يوضع أمام العقل للحكم عليه، وهو المحور الذي تدور حوله مسائل العلم ويبحث عن عوارضه الذاتية فيها.

حكومة عادلة من خلال الفلسفة، وقد ترك بعد موته جامعة هدفها الرئيسي تربية وتخريج فلاسفة سياسيين قادرين على بث مبادئ العدالة في مختلف أصقاع البلاد اليونانية، له(٢٨) محاورة منها (هيبياس الكبيرة، أيون، خرميدس، ليسيس، الدفاع، المأدبة، السياسي، القوانين، الجمهورية (المعروفة بجمهورية أفلاطون)لمزيد من الاطلاع راجع الموسوعة الفلسفية بأشراف م.روزنتال ص٤٠، ومعجم الفلاسفة ص٧١، للطرابيشي، والموسوعة الفلسفية لعبد المنعم الحفني ص٥٢ .

ج. أرسطو: هو أعظم فيلسوف جامع لفروع المعرف الإنسانية، ولد في (سنة ٣٨٤ ق م)، وتوفي في (سنة ٣٢٢ ق م)، ويمتاز على أستاذه أفلاطون بدقة المنهج واستقامة البراهين والاستناد إلى التجربة والواقعية ومن هنا لقب (بالمعلم الأول)، ولد في اسطاغيرا من مقدونية درس صناعة الطب ثم سافر إلى أثينا في عصر إزدهار الفلسفة، وكان شيخها المبرز يومئذٍ أفلاطون، فدرس عنده نحو عشرين سنةٍ ثم اعتزله، وكان منهجه يخالف منهج أستاذه أفلاطون، فالأستاذ كان يعتمد على العقل فقط، ولكن التلميذ اعتمد على العقل والحس معا وأعطى لكلٍ منهما، ولأجل ذلك كثرت كتبه في علمي الطبيعيات والإلهيات، ولأرسطو نظريات كثيرة يخالف فيها أستاذه، تبعاً للمقدمات التي انطلق منها، ذكرها في هذا الكتاب خارج عن نطاق هذا البحث .

وعلى هذا ستعرف خطأ وضلال من يعتقد بأنّ المعرفة محصورة فقط وفقط في الأمور المحسوسة، وسوف يأتي منا الرد على هؤلاء ونثبت بالبرهان القاطع سخف هذا المذهب، وأنّ المذهب الحق والمختار عندنا هو المذهب العقلي البرهاني في الفصل السادس من المقصد الثالث ولأرسطو كتب في مختلف الميادين العلمية منها، (الكتب المنطقية، والطبيعية والميتافيزيقية والأخلاقية والشعرية)، فهذا يكشف عن كون الرجل منهجياً، معترفاً بالحس والعقل معاً راجع نفس المصادر السابقة .

وقد ثبت في صناعة البرهان أن لكل علم موضوعاً، وأنه إما يكون بمثابة الكل لمجموع موضوعات مسائله كعلم الطب، أو بمثابة العنوان الكلي الذي تندرج تحته موضوعات المسائل كأغلب العلوم.

وثبت أيضاً أن العلوم تتمايز بتمايز موضوعاتها الكلية، وهو المانع من تداخل العلوم مع بعضها البعض في مقام التعليم والتعلم.

مناقشة صاحب كفاية الأصول

وقد ذهب الآخوند الخراساني[1] (ت ١٣٢٩ هـ) إلى أن العلوم تتمايز بتباين أغراضها لا موضوعاتها، قال: «**وقد إنقدح بما ذكرنا: أن تمايز العلوم إنما هو باختلاف الأغراض الداعية إلى التدوين لا الموضوعات**»[2].

أقول: هذا المذهب مع مخالفته لما أطبق عليه الحكماء والمناطقة في صناعة البرهان، فهو غير صحيح في نفسه؛ لأنه قد أخذ ما بالعرض مكان ما بالذات؛ إذ أن وحدة الغرض التي جعلها ملاكاً لاندراج المسائل المختلفة في علم واحد، إنما منشأها وحدة الجهة الجامعة بين هذه المسائل - بناء على السنخية - وإلاّ لاستلزمت أيّ مسألة أيّ غرض، وهو محال. وهذه

(١) هو الشيخ محمد كاظم بن المولى حسين الهروي الخراساني، المعروف (بالآخوند الخراساني)، ولد سنة (١٢٥٥هـ) بمشهد المقدسة إحدى محافظات إيران، درس المقدمات في الحادية عشرة من عمره، ثم سافر للنجف الأشرف التي كانت مركز العلماء في ذلك الوقت، ودرس على أيدي أكابر العلماء في الفقه والأصول، ومن ابرزهم الشيخ الأعظم الأنصاري، ثم تربع على كرسي التدريس، وبدأ يلقي دروسه في الفقه والأصول، وقد حضر مجلس درسه ما بين ١٢٠٠ إلى ٢٢٠٠، فيهم ما يقرب من (٣٠٠ إلى ٥٠٠) مجتهد مسلّم الاجتهاد، أبرزهم الميرزا محمد حسين النائيني والشيخ محمد حسين الأصفهاني والشيخ أغا بزرك الطهراني والسيد حسين البروجردي الذي أصبح فيما بعد من مراجع الشيعة في عصره للاخوند الخراساني أكثر من ٢٠ مؤلّفاً أشهرها على الإطلاق كتاب (كفاية الأصول المعروف بالكفاية) وهو من الكتب القيمة الذي عليه مدار الدراسات العالية سواء للسطح أو لأبحاث الخارج، وهو - الكتاب - من المصادر الأساسية في هذا العلم، توفي الآخوند سنة ١٣٢٩ هـ في النجف الأشرف ودفن فيها رحمه الله.

(٢) كفاية الأصول ج١، ص٢٢ .

الجهة الواحدة الجامعة هي موضوع العلم لا غير، سواء أكان هذا الجامع حقيقياً أم انتزاعياً أم اعتبارياً، فالعلوم تتباين بموضوعاتها أولاً وبالذات، وبأغراضها ثانياً وبالعرض.

هذا بالإضافة إلى أن تمايز العلوم بموضوعاتها إنما يكون لها في حد نفسها وبحسب ذاتها، وتمايزها بأغراضها يكون لها من حيث هي في نفس الباحث، فيكون تمايزاً لها بالعرض لا بالذات، فهو قد خلط بين تمايز العلوم وتمايز العلماء.

أما موضوع علمنا الذي نحن بصدد البحث عنه فهو: (المناهج المعرفية المستعملة في تحقيق مسائل العلوم)؛ ولذا فإن هذا العلم يباين سائر العلوم لا من حيث خصوصية موضوعه فحسب، بل من حيث طبيعة موضوعه؛ إذ أن سائر العلوم تبحث عن معرفة الأشياء المختلفة، وهذا العلم يبحث عن نفس المعرفة وعن سائر المناهج المعرفية من حيث حجيتها ودائرة حجيتها، وعلاقة بعضها ببعض من حيث التقدم والتأخر وموارد استعمالاتها المختلفة.

وببيان آخر: إن سائر العلوم تعتمد على أدلة معينة - عقلية كانت أو تجريبية أو نقلية - لإثبات مسائلها، وهذا العلم يبحث عن دليلية هذه الأدلة واعتبارها، وهذا يستلزم تقدمه بالطبع وبالزمان على سائر العلوم.

الأمر الرابع: مبادئ العلم

وهي الجزء الثاني من ماهية العلم - ومنها يكون البرهان - والمراد منها مجموعة المفاهيم والقضايا التي لا بد أن تكون مسلمة للباحث، قبل الدخول في تحقيق مسائل العلم، وكونها مسلمة إما لوضوحها في نفسها أو لأنها مُبيَّنة في علم آخر

فكما بُيِّن في صناعة البرهان، أن المبادئ التصورية والتصديقية لأي علم هي التي يبتني عليها تحقيق مسائل هذا العلم، وأن وثاقة العلم واعتباره تدور مدار وثاقة مبادئه واستحكامها.

ومبادئ هذا العلم - كسائر مبادئ العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة - هي المفاهيم والقضايا البديهية، التي تشكل ملاك الأشرفية والأفضلية للعلوم العقلية على سائر العلوم

الأخرى، بقوتها وغناها بنفسها عن غيرها، وحاجة الغير إليها دون العكس، فهي تصل في غناها إلى عدم احتياجها إلى الاستدلال، بل هي الأساس الذي يبتني عليه أيّ دليل.

وهذه العلوم الضرورية هي التي تظهر بنفسها لدى الإنسان حين بلوغه سن التمييز، فيدرك امتناع اجتماع النقيضين، وجواز الجائزات العقلية، واستحالة المستحيلات، ووجوب الواجبات، وأن الواحد نصف الاثنين، وأن كل حادث لابد له من محدث، وغير ذلك.

والمنهج العقلي المتبع في تحقيق مسائل هذا الكتاب، يرتكز على هذه المبادئ البديهية، وبها يمتلك صفة الشمول والحكم على سائر المناهج، ولذلك لم يبحث المتقدمون من الحكماء عن حجيته من هذه الجهة، بل عدّوه من المسائل المفروغ منها، التي يشكل البحث فيها جهد العاجز أو تحصيل الحاصل.

الأمر الخامس: مسائل العلم

وهي الجزء الثالث والأخير من ماهية العلم، وعليها يكون البرهان، وهي المطالب العلمية المطلوب تحقيقها وإثباتها في هذا العلم، فتكون موضوعاتها إما جزء موضوع العلم أو من جزئياته، أما محمولاتها فتشكل العوارض الذاتية لموضوعاتها، كما تبين ذلك كله في صناعة البرهان.

ويمكن تقسيم مسائل هذا العلم إلى ثلاثة أقسام كلية:

المسألة الأولى: قيمة المعرفة.

المسألة الثانية: أدوات المعرفة.

المسألة الثالثة: المدارس المعرفية.

وسوف نشير إلى كل واحدة منها بشكل مختصر بما يناسب مقدمة البحث:

أولاً: قيمة المعرفة

تعتبر هذه هي المسألة الأولى من حيث الترتيب الطبيعي للبحث المعرفي إذ أنها تحاول الإجابة عن مجموعة من التساؤلات الملحّة والضرورية حول قيمة المعارف البشرية.

فلا يمكن أن يتغافل الإنسان عن هذا الكم الهائل الحاصل لديه من العلوم النظرية والعملية المتعلقة بما هو كائن أو ما ينبغي أن يكون[1] فيبدأ بالتساؤل عن القيمة المعرفية، باحثاً في ثنايا هذه العملية الإقرارية التقييمية عن مدى الفائدة من هذا الكم الحاصل لديه، وهل هو ذو قيمة أم أنه مجرد كم من التصورات والأوهام؟ وحينها تكون أهمية هذا البحث منتفية إن كانت تدور في دائرة الوهم، أو ثابتة إن كانت كاشفة عن الواقع وحاكية عنه بما لا يقبل الشك أو التأويل، ولا يخفى أن هذا التساؤل يحظى بمكان من الأهمية في تعيين مصير البحث العلمي.

إذن، علينا أن نبدأ من الصفر لو أردنا البناء الحقيقي المحكم للصرح العلمي من خلال تأسيس الكيان المعرفي لعقولنا. ولا تقتصر دائرة هذا الأمر على الطالبين والدارسين للحكمة أو الفلسفة، بل الأمر يشمل سائر العلوم الأخرى، فالترتيب السلّمي للبناء يقتضي ذلك، والتعاقب المرحلي لا يقوم بدون هذا الشيء، والإحكام والدقة قائمتان على الصلابة الارتكازية للمباني المعرفية، وفي حالة عدم الوصول إلى الإثبات المبنائي للنظرية المعرفية، فستكون النتائج حينئذٍ وخيمة للغاية ومنها:

١. الانسداد العلمي في جانبي التعليم والتعلم.

٢. بطلان الاعتقادات والأديان.

٣. انهيار المباني الأخلاقية والحقوقية والاجتماعية والسياسية.

---

(١) سيأتي الكلام عن الحكمة النظرية والعملية بشكل موجز في بعض مطاوي هذا الكتاب، والكلام عنهما بشكل تفصيلي موكول لكتب الفلسفة، كالإشارات وغيرها.

ثانياً: أدوات المعرفة

بعد قطع دابر السفسطة، وإثبات أن للمعرفة البشرية قيمة كاشفة عن الواقع في الجملة، ينتقل بنا البحث بصورة طبيعية إلى الفحص عن أدوات المعرفة، وقد انقسم أهل العلم فيما بينهم إلى أربع طوائف بانقسام أدوات المعرفة التي اعتمدوها كأداة رئيسية لكشف الواقع المحيط بنا والأدوات التي يمكن الاعتماد عليها في كشف الواقع هي:

الأولى: العقل

والذين اعتمدوا على العقل البرهاني هم الفلاسفة والحكماء، وهو الأداة الرئيسية في كشف الواقع، وهو الحاكم الأول والأخير عندهم، وتستمد سائر المناهج المعرفية مشروعيتها منه، وتعمل تحت إشرافه.

الثانية: الحس والتجربة

والذين اعتمدوا على الحس والتجربة الحسية هم الماديون، وهي الأداة الوحيدة عندهم لكشف الواقع، وعدم اعتبار أيّ شيء خارج عن حريم التجربة.

الثالثة: النقل

وأغلب أهل الملل والنحل اعتمدوا على النقل والأخبار - ظواهر النصوص الدينية - في معرفة الواقع وجمدوا عليها.

الرابعة: القلب

والذين اعتمدوا على المكاشفات القلبية هم العرفاء من الصوفية ومن حذا حذوهم، في معرفة حقائق الأشياء.

ثالثاً: المدارس المعرفية

إن انقسام أهل المعرفة فيما بينهم وانشعابهم إلى مدارس واتجاهات معرفية مختلفة، كان نتيجة طبيعية - كما بيّنا - لاختلافهم في الأدوات المعرفية الكاشفة عن الواقع، وسوف نتعرض - إن شاء الله تعالى في باب مستقل وواسع - بشكل تحليلي ونقدي لهذه المدارس المعرفية التي هي في الواقع مدارس فكرية مختلفة، منها من اعتمدت على أداة معرفية واحدة، كالمدارس التجريبية والأخبارية والكلامية والصوفية والعقلية، ومنها من اعتمدت على أكثر من أداة معرفية، وهي المدارس التلفيقية، كالمدرسة الفلسفية الإشراقية، ومدرسة الحكمة المتعالية.

الأمر السادس: الغاية من هذا العلم

الغاية هي الكمال الأخير الذي يتوجه إليه الفاعل في فعلة[1]، أو قل هي الصورة الاكمل لوجود كل شيء في طريق التكامل، وقيل الغاية أول الفكر وأخر العمل، ولذا قيل: (إنّ الغاية متقدّمةٌ على الفعل تصورا ومتأخّرةٌ عنه وجوداً)[2]، قال الشيخ الرئيس في الفصل الأول من إلهيات الشفاء المقالة السادسة: الغاية العلة التي لأجلها يحصل وجود شيء[3]، والغاية لها اعتباران يحصل لها باعتبارهما التقدم والتأخر بالنسبة للمعلول [4]

وغايتنا من هذا الفن التعرّف على المناهج المعرفية الصحيحة في كشف الواقع ودائرة حجيتها وطبيعة العلاقة بينها، والذي تترتب عليه منافع مهمة جداً، أهمها ثلاث:

---

(١) بداية الحكمة السيد محمد حسين الطباطبائي ص١١٨ .

(٢) التعليقات للشيخ الرئيس ص ١٥٣، والتعليقات للشيخ الرئيس، تحقيق، د حسن مجيد العبيدي ص٣٠٢، وأثولوجيا، أفلوطين عند العرب ص٤ .

(٣) الإلهيات ص ٢٥٧، تحقيق الدكتور إبراهيم مدكور، والإلهيات ص٢٥٨ تحقيق الشيخ حسن حسن زاده الآملي

(٤) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقادص١٩٨ .

المنفعة الأولى: تعيين مصير الإنسان في هذا العالم وما بعده

لا يستطيع أيّ عاقل أن ينكر أن هناك أسئلة كثيرة يطرحها الإنسان على نفسه بصورة مستمرة منذ أن عرف نفسه، وهو إذ يسعى للحصول على ما يقنعه من الإجابات الصحيحة، فهو إنما يسعى - في الواقع - وراء معرفة الإجابة الصحيحة لثلاثة أسئلة رئيسية تتشعب منها سائر الأسئلة.

أما الأسئلة الرئيسية فيمكن حصرها في ما يلي:

١. من أين أتيتُ - أنا الإنسان - إلى هذا العالم؟ وهو لمعرفة الماضي.

٢. لماذا أتيتُ إلى هذا العالم؟ وهو لمعرفة الحاضر.

٣. إلى أين سأذهب في ما بعد؟ وهو لمعرفة المستقبل.

وهذه الأسئلة يطرحها الإنسان على نفسه بحكم ما وهب الله له من العقل والتفكير، ويجد نفسه ملزماً بالسعي وراء الحصول على إجابات صحيحة ومقنعة لهذه الأسئلة الآنفة الذكر.

هذا، وإنّ من حق كل إنسان معرفة ما يخصّ حياته التي يعيشها، كما يحق له معرفة حالته السابقة على هذه الحياة، وله أيضاً حق معرفة ما سيلحق به بعد حياته، بل العقل يحكم بوجوب تحصيل المعرفة بالنسبة إلى هذه الأمور.

ثم إن البحث والتحري عمّا سبق يُحدد للإنسان مساره، ويمنحه فرصة لانتخاب مناهج مادية أو إلهية بعد تمييزه للصالح منها هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن أيّ تقدم يمكن أن يحققه الإنسان في حياته، إنما يتحقق بوجود برنامج دقيق وتخطيط صائب، ثم العمل على طبق هذا البرنامج، والأخذ بذلك التخطيط.

ومن الواضح جداً أنه لا يمكن وضع أيّ برنامج ورسم أيّ تخطيط للحياة إلاّ بعد معرفة صحيحة ودراسة واقعية للحياة نفسها، ولما يدور حول الإنسان، فيجب على من يريد رسم برنامج لحياته والتخطيط لها، أن يحصل على المعرفة بالمكان والزمان والمبدأ والمعاد، وطبيعة ما

يدور من حوله من الأمور الأخرىٰ كي يوفّق لوضع برنامج دقيق، ورسم مخطط سليم يتوصل بهما إلىٰ شاطئ السعادة والفلاح.

هذا وإن الإنسان لا يستغني عن تحصيل المعرفة مع كل خطوة يخطوها ومع كل عمل يقوم به. وإلىٰ هذه الحقيقة تُشير الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

فعن كميل بن زياد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال في وصيته إليه: «**يا كميل ما من حركةٍ إلاّ وأنت محتاج فيها إلى معرفة...**»[1].

فالسلوك الإنساني الاختياري ينطلق من مبادئ علمية؛ لأن العلم هو المبدأ الأول للفعل الاختياري، فمعرفة حسن الفعل وقبحه هو المحرك لإرادة الفعل وتحققه خارجاً، وهذه المبادئ العلمية هي التي تسمىٰ بـ(الأيديولوجيات)، أو القضايا التي يعبر عنها بـ(ما ينبغي أن يكون).

وتبتني هذه القضايا العلمية علىٰ مجموعة أخرىٰ من القضايا، وهي التي يعبر عنها بالقضايا النظرية الكلية التي تشكل ما يسمىٰ بـ(الرؤية الكونية) أو ما هو كائن.

وفي الاصطلاح الشرعي يعبر عن الرؤية الكونية بـ(أصول الدين)، وعن الأيديولوجيات بـ(فروع الدين)، والمهم في ثنايا هذا الموضوع هو الإطلاع علىٰ الكيفية التي تتشكل بها الرؤية الكونية عند الإنسان.

وتبتني الرؤية الكونية بصورة رئيسية علىٰ المنهج المعرفي، المستعمل في الكشف عن الواقع ومعرفة الخطأ من الصواب، فالمنهج الذي يختاره الإنسان له عظيم الأثر في اختيار الرؤية الكونية التي تسانخه، والتي من خلالها تنطلق الأيديولوجيات العملية المؤثرة في تكوين السلوك الاختياري القائم علىٰ هذه الرؤية سلباً أو إيجاباً.

فالإنسان الليبرالي مثلاً - الذي لا يبالي بأي قيمة دينية علىٰ مستوىٰ الاعتقاد والعمل - إنما يفعل ما يفعله انطلاقاً من مجموع قضايا تكونت لديه بعيداً عن الدين، وعن الارتباط بعالم غيبي ينتمي إليه، بدءاً وعوداً، فهو في تصرفاته يجعل جانب المألوفيّة الاجتماعية هو الأساس

(١) مستدرك وسائل الشيعة، الميرزا النوري، ١٧/ ٢٦٧، ح/ ٢١٣٠٢.